دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
مدخل إلى كتابى
عبد القاهر الجرجانى
اسم المؤلف:
الدكتور محمد محمد أبو موسى
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
الطبعة: الثانية
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م
٤٢٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ١٩٩٧/١٣٨١٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977 - 225 - 114 - 0

مدخل إلى كتابي

عبد القاهر الجرجاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة الطَّبعة الثَّانية

اللّهم اهْدنا وأعنَّا وتقبَّلْ منَّا، واغفرْ لنا وارحمْنا.

يختلفُ كتابُ "دَلائل الإعْجاز" عنْ أكثرِ الكُتبِ الّتي بيْن أيْدينا مِنْ جِهةِ أنَّ مادَّته الْعلَميَّة مِن استنباطِ واسْتخراجِ مؤلِّفه، وأنَّ ما عوّل عليه فى استنباطِ واسْتخراجِ هذه المادَّة مِن كلامِ من سبقُوه كان كالرَّمزِ والإِيماءِ، والإشارةِ فِي خفاءٍ كما قال، وأنَّه لهذا اعتمد علَى أمرين:

الأمرُ الأوّل: الصّبرُ على مُراجعة هذا الّذي تَرامَى إليْه، ولَمْ يَجدْ بيْن يَدَيْه مِنْ كلام أَوَائلنَا إلاّ هُوَ ، وهُو شديدُ الإبْهامِ، مُوغلٌ فِي الغموضِ، وكأنَّهم كانوا يُخاطبون به طبقتَهم، لأنَّه كان لا يَفهمُ عنهم إلاَّ مَنْ كَانَ منْ هَذه الطَّبَقَة ، وإنّك لتُدرك هذا الصَّبر، وتُدركُ هذا الكدَّ، وتدْركُ هذا المجْهودَ المبْذُولَ فِي كشْفِ الإبْهامِ، وإزالة الغُموضِ، وكيْف خرَجَت الحَقيقَةُ الْبَلاغيّةُ، والْقَاعدَةُ الْعَامَّةُ منْ كَلمَة إذَا مرّتَ عليْك قبْل أنْ تمُرَّ علَى عقلِ الشّيخ لمْ ترَ فيها شيئًا، وهذا جليلٌ جدا، وهُو ضَالَّةُ مَن يريدُ أن يتعلّم علْم الكشْفِ عنْ حقائقِ المعْرفة، وكيفَ بناها مَن بناها، وكيف تأصّلَتْ وصارت بيْن أيدينا حقائقَ وقواعدَ ومناهجَ، وَوَرَاءَ كُلٍّ فكرةٍ منها ما وَرَاءَهَا من رَشْحِ جَبِينِ هؤلاءِ الّذين صدَقوا ما عَاهدُوا اللهَ عليْه.

الأمر الثانى: ما توافَر بيْن يديْه من طرائقِ العربِ فى الإبانة عَن معانيها، فإذا كان يَتكَلَّمُ فِي أداةٍ مثْلِ إنَّ أوْ همزةِ الاستفهامِ أوْ أداةِ شرْط أوْ إنَّما أو النَّفي والاسْتثناءِ أوْ لام التَّعريف، أوْ كان يَتكلم فِي حال مِن أحوالِ التركيب كالتقديم أو الحذف أو ما شِئْتَ من أحوالِ اللغة الّتي هِيَ بها دالّة تتبَّع ذلك فى كلام العرب

وفى كـلام الله سبحـانه وتعالى ، ووضع بين يديْـه الكثيـر من هذه الأدوات وهذه الأحوال، وصبّ عقلَه وحسّه لِيستخرج معنى الأداة، أو دلالة الطريق، وراجَعَ السِّياق بيقظة شـديدة، وحدّد مـا يشتَبِـه وما يخـتلف، ثم إنّ هذه الْوَفْرَةَ الْهَائِـلَةَ كانت تمدُّه بغـزارة المعـانِي وتنوّعـها، وسـجّل كلَّ ذلك، وكـانت إذا تكاثرت أمـامَـه الدّلالات وتنوّعت، ورآها تَفتح له بابًا تِلْـوَ بابٍ أغْلق البابَ بعْد فيْضٍ مِن المعـاني والأحوال، وقال العـبارة التى كرّرها كثـيرا "وليس الّذي يعرضُ بسبب هذا من الدّقـائق والأمور الخفيّـة بالشيْءِ الّذي يُدركُ بِالْهُوَيْنَا ، ونحنُ نقتصرُ الآن علَى مـا ذكرنا " ثُمّ ينتقلُ إلَى بابٍ آخـرَ هُو فرْعٌ مِن هذا البـابِ، وامتـدادٌ له، حتّى أنَّك لَتـرى بعْض الأبواب الأساسـية فِي عِلْم المعـانِي لو رَجعْتَ بِهـا إلَى سيـاقه وهُو فِى مَـعْمَـعَة استـكشاف الدّلالاتِ الخفيّـة للأدوات والتّراكيب، وجَدتَ هـذه الأبوابَ كانت فُروعًا مُـمْتَدَّة من غيرِها، كـبابِ الفصْل والوصْل الذى هُو امتـدادٌ لحديثه فِي الجُملة الحـاليّة إذا جاءتْ بالواوِ؛ لأنَّ واوَ الحال ليستْ خاليةً مِن مَعْنَى العطْفِ؛ لأنّها لَم تأتِ فِي الجُملة الحاليّة إلاّ بقصد الدّلالة الخفيّة علَى أنّك تستـأنفُ بهذه الْواوِ معنًى، وكأنَّ الجُملة الحاليّة الّتِي فـيهـا الوَاوُ هِيَ أقربُ إلَى أنْ تكونَ مُـستـقلَّةً عَن الجُـملةِ الحاليّـة التي بدُون الْواو، وقولُنا: جاء زيدٌ يسْعَى غلامُه بيْن يـديْه، بِدون الواوِ لإفادة معنًى هُو أنَّ سَعْيَ غلامه بيْن يديْه جُزْءٌ مِنْ الْـخَـبَرِ الأوّل، الّذِي هُو الْـمَجِيءُ، وأنَّ افتقـادَ الـواو لإزالةِ معنَى أنَّه خـبَرٌ ثان، فـإذا قلتَ: جاء وغـلامُه يسـعَى بيْـن يديْه، دلّـت الواو على مـزيدِ عنايتِك بمعنَى الجملةِ الحاليّـة، حتّى كأنّها تُوشكُ أنْ تكونَ خبرًا مُسـتأنفًا، وهذا معنَى أنّها - أي الواو - تربـطُ الجُملة الحاليّـة بالّتِي قبلَهـا، وأوشكَ الكلامُ معـها أن يكونَ عطفًا لجملةٍ علَى جملة، وتأمّلْ عبارتَه التي يقـول فـيها "فجيءَ بالواو كما جِيءَ بها فى قـولِكَ: زيدٌ منـطَلِقٌ، وعمْـرٌو ذاهـبٌ. والعلـمُ حسـنٌ، والجـهـلُ قـبيـحٌ. وتسميتُنا لهـا واو الحـالِ لا يُخرجها عَنْ أنْ تكونَ مُجْتَلَبَـةً لِضَمِّ جُمْلَةٍ عَلَى جُمْلَةٍ " (دَلائل الإعْجاز: ص٢١٤).

وهذا إرهاصٌ واضِحٌ بمجِيءِ باب الفصل وَالْوصَلِ بعد الجُملة الحاليّة، وكأنَّ واو الحال هيَ الجِسر الواصِل بيْن هـذا المبحثِ وباب الفـصْل والوصْل، وأنا أجتـهدُ في

وصف معاناته وتَغَلْغُله في الأساليب التي بين يديه، وأجتهدُ في بيان تذوقه البالغ للمعنى وإدراك الفروق الخفيّة، وصبره المفرط، انقطاعه المنقطع النظير، واسترفاده من خبرته النّحوية العميقة، أقولُ أجتهدُ في بيان كلّ هذا ولكنّني أُقَصِّرُ، والعبارةَ لا تُسَاعِدُني؛ لأنّه فوق كلّ ما ذكرتُ، فإذا رجعتُ إلَى الوراء لأتبيّن كيف انتقلَ إلَى الجُملة الحاليّة وجدتُه قدْ انتقلَ إليْها من مَعْمَعَة كَشْف وسَبْرغَوْر دَلالة كلمة "الّذي" الّتي بَهَرَهُ قدرتُها علَى الإيحاء بمعنًى خَفِيّ، فكتبَ فصْلاً عنوانُه "فَصْلٌ في الّذي خُصُوصًا" ، ثُمّ فتحَ الكلامَ فيها بقوله : "اعلَم أنّ لَكَ في الّذي علماً كثيراً، وأسْراراً جمّةً، وخفايا إذا بحثتَ عنها وتصورّتَها اطّلعْتَ علَى فوائدَ تُؤنسُ النّفسَ، وتُثلِجُ الصّدْرَ بما يُفضي بك إليْه من اليقينِ، ويؤدّيه إليك من حُسْن التّبْيينِ".

راجِع الّذي رآهُ في كلمة "الّذي" من العلْم الكثيرِ، والأسرارِ الجمّة الخفيّة، وهُو كَلامٌ يُثيرُ؛ لأنّ هذه الكلمةَ تمرُّ بنا كما تَمرُّ غيرُها من الكلمات، ولَمْ نرَ فيها علْمًا كثيراً، ولا فوائدَ جَمّةً، ولا خفايَا تُؤنسُ النّفسَ، وإنّما تَغلْغَلَ فَأدْركَ، وليْس في كلامِ عبد القاهرِ كلمةٌ زائدةٌ، ولمْ نعرفْ عنه أنّه يُبالغُ في وصف حقائق البيانِ ودقائقه، ثُمّ إنّ القارئَ لا يُخْطئُهُ صدورُ هذا الوصفُ منْه لهذه الأداة عَنْ وَفْرَة معانٍ وعَنْ صدْق رُؤية وَسَعَة معرفة بالّذي تَبَدّى لَهُ من معانيها وإيماءاتها وإشاراتها، وَقدْ ألفَ عبدُ القاهر استخراجَ خفايا المعاني ومخبآتها من اللغة الّتي هِي كالرّمزِ والإيماء؛ لأنّه كان مشْغوفًا بمعرفة أسرارِ البيان، وكانَ هذا يُشبهُ حَقْلَ الرُّمُوزِ والإشاراتِ، وكأنّه تخصّصَ في قراءةِ المُغيّبِ الّذي وراءَ الكلمات.

ولا يُمكنُ أنْ يكونَ قد اهتْدَى إلَى العلْمِ الكثير، والأسْرارِ الجمّة، والخَفايا الّتي تُؤنسُ النّفسَ المَطْويّ في ضميرِ كلمة الّذي منْ جهَة قراءة ما كَتَبَهُ الْعُلَماءُ في "الّذي" خُصُوصًا، لأنّ كلامَهم فيها شديدُ الاختصار، وَفَحْواهُ أنّ "الّذي" اجتُلبَ ليكونَ وُصلةً إلَى وصْف المعارف بالجُملِ، كَما اجتُلب "ذُو" ليكُونَ وُصْلَةً إلَى الوَصْف بأسْماء الأجْناسِ، وإنّما الّذي فَتحَ لَهُ بابَ علْمِ "الّذي" طُولُ التّأمُّلِ في الأساليب الكثيرةِ الّتي وَضَعَها بيْن يديْه، وَأخَذَ يُقَلّبُها ويراجعُ بِيقظَةٍ شديدةٍ مَا أسْكَنَه العربُ في

هذه الكلمة، وكيف كانت في لسانهم وعاءً للعلمِ الكثيرِ، والأسْرارِ الجمَّة، والخفايا التي لاتتكشَّفُ إلاَّ بكثيرٍ من المُراجَعة، وبكثيرٍ من دقَّة الفَهْمِ ومَنْ دقَّة الطَّبْعِ، فإذا ما استُكْشفَتْ آنَسَت النَّفْسَ، وأَثْلَجَت الصّدرَ، وأفضَتْ إلَى بَرْدِ اليقينِ. والمُشْكلةُ أنَّ عِلْمَ هذا الشّيْخِ محتاجٌ إلَى رجالٍ منْ طَبَقته.

عبدُ القاهرِ يدلُّنا علَى أنَّ الْمَكْمَنَ الّذي يَكْمُنُ فيه علْمُ العربيّة ليْس مُتُونَ العلماءِ وحدَها، مَعَ أهميّتها، والأهمُّ والأوْسعُ البحثُ عنْ سرِّ كلماتها تحْتَ ألسنة أصحابِها، والّذي استخرجَه العلماءُ إنّما استخْرَجُوه منْ تحْت ألْسنة هؤلاءِ، وبقِي تحْت هذه الألْسنة أضْعافُ ما استخرجَه العلماءُ، فمنْ أراد الكشفَ عنْ سرٍّ جديد فليْس لَه إلاّ هذا الّذي نطقُوا به، وإنّما كان يستخرجُ كلُّ واحدٍ من عُلمائنا من لُغة القومِ ما يستخرجُ، ثُم يقتصرُ علَى ما استَخْرَجَ ويترُكُ البابَ مفتوحًا، ويقولُ لِمَنْ يأتِي بعْده: إنّ الدقائقَ والخفايا في هذا البابِ لا تدركُ بِالْهُوَيْنَا، وكأنّه لمّا ترك البابَ مفتوحًا كتَب عليْه هذه الجُملة الرّفيعةَ، وهِي أنّ الذي هُنا لا يُنال إلاّ بعْد مُكابَدة، فاحْذرْ مِن خِداعِ النّفس، واتّباعِ أوّل خاطرٍ.

ولا بُدّ أنْ نَستيْقنَ أنَّ العربَ كانوا يعْلمون كلّ علْمٍ مُضْمَرٍ في لُغتهم؛ لأنّهم كانوا يُجرونها علَى ألسنتِهم علَى وَفق هذا العلم، فلَمْ يَضَع الْعَرَبِيُّ "الواو" مكانَ "الفاء"، ولا المُعرّف مكانَ المُنكّر، ولا المؤكّد مكان المُرْسل، إلَى آخرِه إلاّ وهو يعلمُ الفرْق بيْن "الواو" و"الفاء"، والفرق بيْن المقدّم والمؤخر، والمُعرّف والمُنكّر، إلى آخره. ويستحيلُ أن يكونَ امرؤُ القيْس مثلا يجهلُ "واو رُبّ" التي كانتْ معْقدَ كثيرٍ منْ شعْره، كما أنّه يستحيلُ أنْ يجهلَ الفرقَ بيْن "الكاف" و"كأنَّ" وهو لا يضعُ إحداها موضعِ الأخرَى، وقولنا إنّهم طُبِعُوا علَى ذلك، لا معنًى له مطلقًا إلاّ أن يكونَ علْم ذلك صار عندهم طبْعًا، يعْنِي علْمًا لا يُنازَعُ فيه، والخُلاصةُ هُو أنَّ مَعْدنَ عُلوم العربِيّة ومَنْجَمها الحَقيقيِّ هُو ما كان تحْت ألسنة هؤلاء العربِ الأعَاريبِ الّذين نحْن منْهم. ثُمَّ إنّ عبدَ القاهر لمّا طال نظرُه فى "الّذي" وكشفت الحُجبَ بيْنه وبيْن ما أُضمر فيها منْ عُلومٍ كثيرةٍ، وأسرارٍ جمَّة، وخفايا تُثلجُ الصّدر، راجَعَ كلامَ النُّحاةِ فيها، وسَبَرَه كما سبرَها، وتفقَّده بِعينٍ أكثرَ نُفوذا، فأضاءَه إضاءَةً جديدةً،

وَوَجد فيه يعني كلام العلماء خبايا تحتاجُ إلَى كشف، وكأنَّ عبدَالقاهرِ كان شديدَ الوَلَعِ بالخبايا، وقراءة الرّموز، وكشف الأغطية، كلّ ذلك في اللغة، فقد نقله الحديث عن خفايا "الّذي" الّتي تُؤنس النّفسَ وتُثلج الصّدرَ، وهي ودائعُ العرب الأعاريب في كلماتهم، إلَى خفايا كلام النحاة في "الّذي" وقال بعْدَ ما لخّص كلام النحاة الّذي يدُورُ حول أنّها وُصلة لوصف المعارف بالجُمل، قال "فهذه جملة مفهومة إلاّ أنَّ تحتها خبايا تحتاجُ إلى الكشفِ عنها" وأهمُّ ما ذكره في ذلك أنّ جملة الصّلة لا بُدّ أن تكونَ جملة معروفة عند المخاطب، وأن تكونَ قصتها معلومةً عنده، وإلاّ لـمَا تحقّق الغرضُ بها، لأنّها هي الّتي تـعرّف الاسم الموصول، وصارت الأسماء الموصولة من المعارف بهذِه الجمل الّتي هي صِلة الموصول، فلا مَحالة أنْ تكونَ معلومةً عنْد المخاطَبِ.

قال الشّيْخُ "والقولُ البيّن في ذلك أنْ يُقالَ: إنّه إنّما اجتلب، حتّى إذا كان قد عرف رجلٌ بقصّة وأمْرٍ جرَى له، فتخصّص بتلك القصّة، وبذلك الأمرِ عنْد السّامع. ثُمّ أُريد القصْد إليه ذكر الّذي" (ص: ٢٠٠) وإذا أردنا أن نعرفَ موضعَ الشّبكة التي انتقل منها الكلام من الّذي إلى الجملة الحالية، فإنّ هذه الشبكة هي أنّ جملة الصّلة لا تستقلّ بأداء معنًى يحسُن السكوتُ عليه، لأنّها تصير مكمّلةً للموصول، ومُعرّفةً له، والموصولُ بصلته جزءُ جملة، وهذا هو وصْلها بالجُملة الحاليّة، التي هي الأخرى موصولةٌ بغيرها، ومكملةٌ لها، وبهذا انتقلَ الشّيخُ من الذي خصوصًا إلَى الجُملة الحالية، وهذا الانتقالُ ليس ثمرةَ جمعِ مادّةٍ علميّة وتصنيفها، لأنَّ كلَّ هذه المادّة لمْ تكنْ مكتُوبةً في كُتبٍ وإنّما اكتشفَها عبدُ القاهر، وأفضَى به إليها التغلغلُ في الّذي سكنَ تحْت ألسنة الأعاريبِ، وقدْ يرُوعُك أكثرَ إذا نظرتَ نظرةً سريعةً لتدرك التّغلغلَ الّذي ساق الشّيخَ إلى الحديث عَن الّذي خصوصًا، وهُو باختصارِ شديد كلامُه في فروقِ الخبرِ، وفروقُ الخبرِ بابٌ مِن الأبوابِ الّتي تنْطوي علَى أسرارٍ ودقائقَ لايُمكنُ العلْم بها إلاّ بعْد أن يقدّمَ جملةً مِن القولِ فِي النّظم، وقد سبقه كلامُه في التّقديم، والحذْف، ثُمّ فروقُ الخبر، وهي أبوابٌ برأسها، وإنْ كانت في جملتها بيانًا مفصّلا لِمعنَى النّظم، وقدْ ذكر فى هذا الباب الفرق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم، وأشار إلَى أنّه فرقٌ تمسّ الحاجةُ في علم البلاغة إليْه، وشرح في ذلك الفرق

بيْن: زيدٌ ينطلقُ، وزيدٌ منطلِق. ثُم أرْدف ذلك بالفرق بين: زيدٌ منطلقٌ، وزيدٌ المنطلقُ. وأدخله هذا إلَى تفصيل القول فى الألف واللام، وهو كلامٌ معروف، ثُم انْتهى إِلَى المعنى الرّابع الذى وصفه بقوله :

"واعلمْ أنَّ للخبرِ المُعرّف "بالألفِ واللامِ" معنًى غير ما ذكرتُ لك، وله مسلكٌ ثَمَّ دقيقٌ، ولمحةٌ كالخَلْس يكون المتأملُ عنده، كما يُقالُ يعرِفُ وينكِرُ، وذلك قولك: هُو البطلُ المُحامِي"

وأراد بذلك أنّ "الألف واللام" تُكسبُ ما دخلتْ عليه أنّه الحقيقة الكاملةُ فِي المعنَى الّذي وضع له، وكأنّك تقول من خلال هذه "الألف واللام" التي صارت مصوِّرة ومجسِّدة للحقيقة الكاملة إذا أردت أن ترَى الصّورة التي هي حقيقة، بأن يقال لصاحبها إنّه البطل المحامي، فانظر إلى فلانٍ فإنّه يُريك هذا المعنى الذي ليس له وجودٌ إلاّ فِي القليل، وربّما كان وجودُه في الوهمِ فقط، وهذا كما تقولُ: هو الرجلُ، وهُو الوَفِيُّ، وهُو الحامِي. وأنت تريدُ بكلّ ذلك أنّه هو الذي احتاز كلّ الصفات والشّيم والمعاني التي إذا توفّرت في رجل صحّ أن يقال هو الرجل، أو إذا توفّرت في الصّديق صحّ أن يقال فيه هو الصّديق، وهكذا، ولا يزالُ هذا المعنى باقيًا في الفطرة، ويعبّر عنه الناس بمثل قولهم: هو الأخ الحقيقيّ.

ثُمَّ عاد عبدُ القاهرإلى التّنبيه إلَى خفاءِ هذا المعنى المُستكنّ في هذه الألف واللام، والذي يقوم في نفس السامع على سبيل التّوهم أحيانًا، ويتردّد في اقتناصهِ لأنّه لمحةٌ كالخَلْس، وقال : "وهذا فنٌّ عجيبُ الشأن، وله مكانٌ من الفخامة والنّبل، وهو من سحْر البيان الذي تقصُر العبارةُ عَن تأدية حقّه، والمُعوّل فيه على مُراجعة النفس واستقصاء التّأمل" وهذا النّصُّ يُبين أثر هذه الألف واللام في أداء المعنى، وعُلو طبقتها في البيان، وقوله: "والمُعوّل فيه على مراجعة النّفس واستقصاء التأمل" مِن الكلام الذي أهملنا ما فيه، لأنّه يجعلُ مراجعةَ المرءِ لنفسه عند سماع الكلام، واستقصاء هذه الأحوال والخطرات التي يثيرُها البيان في نفس من يسمعه ويقرَؤُه أصلاً من أصول الدّرس البلاغي، وكأنّه قاعدةٌ من قواعدها، وأنّ هناك أدوات ووسائلَ في اللغة نتخطاها من غيرمراجعة، وهي وكُنةٌ من وُكُنات المعاني اللطيفةً

السانِحة التي هي كالخَلس، والتي تترصّدها النفس الحيّة، ويهُولها أنّها لا تسيطر عليها السيطرة الكاملةَ، فتكون منها كمَن يعرف وينكر، وهذا كلّه يؤكّد ما أريد بيانَه في هذه المقدمة من أنّ أداة عبد القاهر التى أزاح بها الغموض عن وجوه حقائق هذا العلم هيَ طول التأمل، وطولُ المراجعة، وطول المداخلة لما كان تحت ألسنة الأعاريب، والذي كان من كنوز قلوبهم وعقولهم، والذي أودعوه عن علم ظاهر به فى لغتهم، والذي عاش علماؤنا جيلاً بعد جيل ليستخرجوا هذه الودائع التي آلَتْ إلى اللغة وطرائق الإبانة بها، والتي كانت جزءًا من فطرتهم ثم آلت إلى اللغة كما قلت وسكنت فيها، وصارت طرائقها، والمُهمُّ أنَّ الشّيخ بعدما اجتهد فى الإبانة عن هذا المعنى ونبله ومكانه من الفخامة أراد أن يُحيلنا إلى أداة من أدوات اللغة هِيَ أقربُ أدواتها إلى الألف واللام، وهى كلمة "الذى" وأنها تصوّره لك فى كلام الأعاريب تصويرا يُدْنِيه منْك أكثر، قال الشيخ: "وليس شيء أغلب على هذا الضرب الموهوم من "الذي" فإنه يجيءُ كثيراً على أنك تقدِّر شيئاً في وَهْمِك، ثم تعبّر عنه بالذي" وذكر شواهده، وكان هذا إرهاصًا بالفصل الذى عقده للذى خصوصا، وكأنَّ قدرة هذه الكلمة "الذي" على الإبانة عن هذا المعنى الخفى الذي هو كالخَلْس أو كاللّمْح هُو الذي فتح له بابها الذي رأى فيه العلم الكثير، والأسرار الجمة، والخفايا التي تؤنس، وهكذا ترى الشيخ لا يغلق باب مسألة إلا بعد أن ينتهى به الكلام فيها إلى فتح باب مسألةٍ أخرى، تُطل عليه من صُلب المسألة الأولى، حتّى إنك لترى جملة من الأبواب فى الكتب البلاغية المتأخرة هي في حقيقتها باب واحد فى كتاب دلائل الإعجاز.

وأختم الكلام في هذا الموضوع ببيان صلة باب القصر بما قبله، وأنّ القصر ليس بابا برأسه وإنّما هو امتداد للنظر في باب آخر، وقد أغفلنا هذه الصلة وجهلناها، ولم ندركها إلا بمراجعة كتاب دلائل الإعجاز، وأصل هذا الباب الذي تولد منه باب القصر، هو حديث عبد القاهر عن صعوبة هذا العلم، الذي هوعلم البلاغة، وأن هذه الصعوبة راجعة إلى أصل واحد هو خفاء المعاني، والفوائد التي يقوم البحث في علم البلاغة على استخراجها، ثم استشهد لبيان خفاء هذه المعاني بما كان من

الفيلسوف الكندى، والمعدود من خاصة العلماء، وأنّه ركب إلى أبى العباس يسألُه عن الحشو الذي يراه فى كلام العرب، والقصة معروفة، وكان جواب أبي العباس جوابا سريعا وموجزا وصوابا، وإن كان عبد القاهر قد أفاض فى مواضع "إنّ" وأثرها فى بناء المعاني، واستدرك على بعض كلام أبي العباس، والذي جرى في كتب البلاغة فى المسألة كلامُ أبى العباس، وسكتتْ أكثرُ الكتبِ، وأُغْفِلَت المواقعُ والدّلالاتُ التي تُفيدُها "إنّ" في الكلام.

وأهمّها أنّها تربط الجملة التي دخلت عليها بالكلام قبلها، وتُحيله جزءًا منه، وكأنّ الكلامَيْن كلامٌ واحدٌ، فإذا أسقطتَها رأيْتَ الكلامَ يتنافرُ، ولا يلتئِمُ إلاّ إذا وضعتَ "الفاءَ" مكانَها، ثُمّ إنَّ هذهِ "الفاءَ" تُفيدُ فَقَط رَبْطَ الْكلام.

ويبقَى الفرقُ الذي اعتبره بشّارٌ فرقًا بيْن كلام المولدين وكلام الأعراب، لمّا سأله خلفٌ عن قوله:

بكّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجيرِ إنَّ ذَاكَ النّجَاحَ فِي التّبْكيرِ

قال بشَّارٌ: لو قلتُ "بكّرَا فالنَّجَاحُ" لكان أشْبَهَ بكلام المُولَّدين.

ومن مواقعها أنَّ ضمير الشأن لا يحسُن إلاّ معها، وله مواقعُ لا يَجِيءُ فيها إلاّ معها.

ومن مواقعها أنّها تُهَيّئُ النّكرة لأن تقع مبتدأ، ولو سقطت لفسد الكلامُ.

ومنها أنّها تهيئ الكلام لحذف الخبر.

واستشهدَ عبدُ القاهر لذلك كلِّه ولغيره ممَّا ذكره في بيان فائدة "إنّ" في الكلام، وهذا الذى ذكره عبدُ القاهر محتاجٌ كلُّه إلى شرح يُبيّن لماذا يحسنُ ضميرُالشّأن معها؟ ولماذا لايصلُحُ في بعض المواضع إلاّ معها؟ وكيف يُهَيّئُ النكرةَ للابتداء؟ وكيف تُهَيّئُ لحذف الخبر؟ إلى آخر ما قال؛ لأنَّ عبدَ القاهر ذكر المواقع، وذكرَالفائدة وسكتَ عن وجْه دَلالة "إنّ" في هذه المواقع على هذه الفوائد كما عوَّدنا، ثُمّ إنّه بعدما أفاض في بيان الذى أشرتُ إليه وغيره، رأى أنّ يُغلَقَ بابَ الحديث فى "إنّ" مع أنّه لم يستوفِ فوائدها، وأنْ يبدأ الحديثَ فيها إذا دخلت عليها

"ما" وبهذا انتقل إلى باب القصر، وبهذا أيضًا يكون باب القصر قسْما من أقسام الحديث عن "إنّ"، وتكون قصّةُ الكنديّ وأبي العباس وخفاءُ دَلالة الكلمات في هذا الباب كلّ ذلك هوالذي هدَى إلى بحثِ باب القصر، ووجّه إليه؛ لأنّ أصلَه هو "إنّ" إذا دخلت عليها "ما" ثُمّ الفرق بينها وبيْن النفى والاستثناء، ثُم مواقع المقصورعليه في كلٍّ إلى آخره، ونحنُ ندرسُ باب القصر بمعزل عنْ هذا الجَذْرِ الذي لا شكّ أنّ وَصْلَهُ بهذا الأصلِ يمنحُه روحًا أخرى، ونَكهة أخرى، وكلُّ هذا قاطعٌ في أنّ أبوابَ البلاغة وَصِلاتُ بعضِها ببعض فى كتابي عبد القاهر، تختلف عن أبواب البلاغة وَصِلاتُ بعضِها ببعض فى كتب من جاؤُوا بعده، وليس لهذا سببٌ إلاّ الذي قلناه مِن الفرق بين من يكونُ مجهوده فى البحث والدرس موجهًا إلى كشف حقائق بلاغةِ الكلام من طولِ النظر في وفرة أساليب العرب وتتبعها، ومن يكون مجهودُه فى الدرس والبحث موجها إلى مراجعةِ كلام أهل العلم فى الباب الذى يكتبُ فيه.

وعبدُ القاهر يصفُ لنا طريقَه فى مواقع كثيرة، ويدلُّنا على أنّ هذا الطريق هو الذى فتح له باب العلم الذى أسَّسه، وذلك فى مثل قوله فى تعليقه على سؤال الكندى "فلو أنّ الفيلسوف قد كان تَتَبّع هذه المواضع لما ظنّ الذي ظنّ" وهذا هو طريقُ العلم ببلاغة اللسان عند الشّيخ: هو تَتَبُّعُ مواضعِ الحذف، ومواضع التنكير، ومواضع الطباق، ومواضع الكناية، إلى آخره، هو غَمْس القلم فِي الّذي تحت لسان أصحاب اللغة، ثُم الاستعانة بكلام العلماء ومتُونهم وما استخرجُوه، وقبل ذلك وبعده إعمال العقل بأقصى درجاته، وتركيز الحس، والإصغاء إلى دلالة الكلام، ومراجعة النفس، إلى آخر ما بيّناه.

وإذا وضعتُ كتاب دلائل الإعجاز بإزاء كتاب سيبويهِ لا لأفاضلَ بين الكتابين؛ لأنّ كتاب سيبويهِ لا يُزاحمُه كتابٌ كتب بعده، ولا لأفاضل بين الرّجلين؛ لأنّ سيبويه لا يُوزن به أحدٌ جاء بعده في اللغة إلاّ رجحه سِيبويهِ، وإنّما لأتبيّن ما يُنسب إلى كلٍّ واحد منهما من مادة كتابه، ولا أشك ولا يشك غيري أنّ الذي يرجعُ إلى عبدِ القاهر من كتّابه أضعافُ الذى يرجع إلى سيبويه من كتابه؛ لأنّ أكثر مادة كتاب دلائل الإعجاز إن لم تكنْ كلّها مما استنبطه عبدُ القاهر وأضافَه إلى تراث الأمة وعليه

ميسَمهُ، والذى في كتاب سيبويهِ هو صَفو علم طبقات النحاة الذين سبقوه، وقد انتهى علمُهم إلى الخليل، وانتهى علم الخليل إلى سيبويهِ، فضْلاً عن من سمع منهم، فقد سمع من حمّاد بن سلمة، وكان مجابَ الدعوة، وله ألفاظٌ فى اللغة تفردَّ بسماعها، وسمِع من يعقوب بن إسحاق الذى بَعَجَ النَّحو ومدّ القياس وشرح العِلل، وسمع من يونس بن حبيب الذى انتهى إليه علم عمرو بن العلاء، وكانت له مذاهبُ وأقيسة تفردَّ بها، كلُّ هؤلاء شاركوا في صناعة كتاب سيبويه، وهم شركاءُ في مادته العلمية، وبراعة سيبويه أنّه وَعَى ذلك كلّه، وتمثّله، ونظّمه، ودوّنه في كتابه، ثُمّ إنّه أضاف، واستَنْبط، وراجعَ، ورجّح، ولم يكن ما استخرجه أقلَّ مما أفاده.

ولم يُتح لعبد القاهر أن يسمع علم دلائل الإعجاز من كوكبة كتلك التى سمع منها سيبويهِ، فاتّكأ على نفسه، ثُم إنّه لم تكن هناك مادة بلاغية متوفرة، ولها رجال، ولها طبقات، كما كان الحال فى النحو، وهذا من فضلِ الله سبحانه وتعالى على عبدِ القاهر وعلينا؛ لأنّه لم يجد أمامَه إلاّ كلام العرب، ولُمَعًا من كلام العلماء، فأدخل نفسه فى مَعْمَعَةِ تجربة علميّة هاديه فيها هو الطبعُ والعقلُ واليقظةُ والصبرُ، وكلّ ذلك من عطاء الله سبحانه وتعالى لنا إذا رزقنا حسنَ الانتفاع.

ولا يُمكن أن يكون واحدٌ من العلماء مهما كان قدرُه صانعا لمادة كتاب سيبويهِ؛ لأنّ استخراج القاعدة النحوية لا يكون إلا باستقراء كلام العرب، فلا بُدّ من طائفة من أهل السماع، والرّواية، حتّى يُقرّر النّحو ضابطًا واحدًا، يقولُ فيه هذا مما أجمعت عليه العرب، أو خالف فيه بعضهم، وذلك بخلاف المسألة البلاغية لأنّها لا تحتاجُ إلى سماع، وإنما تحتاج إلى الذى بيّناه مما كان عبد القاهر يسلكه، وهو صعبٌ جدا، ولكنّه ليْس منتشرًا انتشارَ ضوابط الإعراب؛ لأنّ الضابط النحوى لا يتمُّ إلا باستقصاء السماع من هذه العرب المنتشرة فى طول بلاد العرب وعرضها.

* * *

أَمْرَانِ لا يختلف فيهما من قرؤُوا التراث البلاغى:

الأمر الأول: هو أنّ عبدَ القاهر وضع قواعد البلاغة وأقسامها، ولو راجعت كتاب "الإيضاح" الذي يمثل رأس الدراسة البلاغية عند المتأخرين، لوجدت كلّ ما فيه

راجعا إلى كتابيْ عبد القاهر، ابتداءً من مقدمة الفصاحة والبلاغة، ولولا خشية الإطالة لرجعت لك بكل فكرة عند الخطيب إلى أصلها عند عبد القاهر، وخصوصًا في علمي المعاني والبيان، وقد بيّنتُ هذا فى الكتاب، وقلتُ إنّ البلاغة التي في شروح التلخيص أصلها في كتابي عبد القاهر، والاختلافُ اختلافٌ فى طبائع المؤلفين، كالذي تراه بيْن السكاكى والخطيب القزويني، مع أنّ الخطيبَ ملخصٌ للسكاكيِّ، وكالذى تراه بيْن سعد الدين التفتازانى وابن يعقوب المغربى، مع أنَّ كلا منهما شارح للتلخيص، وقلت إن الثناء على بلاغة عبد القاهر والقدح فى بلاغة التلخيص تناقض.

وما زلتُ أقرأ كتابات تقولُ إن عبد القاهر لم يُعن بالقاعدة وإنّما كان يُعْنى بالتحليل، وأنّ الذى وضع القواعد والتقسيمات هو السكاكى، وهذا كلام من يكتبون فى العلم قبل أن يقرؤوه، وليس هذا بغريب عندنا، فقد أَلِفنا رؤية من يتفلسفون قبل أن يتعلموا الفلسفة، ومن ينتقدون قبل أن يتعلموا النقد، والأصلُ فى شيوع كلٍّ ذلك أنّنا يَسُوسنا من لا يعرفون السياسة، فإذا كان هذا شأن ربِّ البيت فلا يجوزُ أنْ ننكر على الضَّاربين بالدّف.

الأمر الثاني: هو أنّ هذه البلاغة التى وضع عبد القاهر أصولَها وفروعها قائمة كلّها على أمرٍ واحد هو دراسة التلاؤم والتوافق بين العبارة بكلٍّ مكوناتها والمعاني القائمة في النفس بكلّ خفاياها، وأنّ هذا الربط بين ظاهر الكلام المتمثل فى الصياغة والنسج والتصوير، وبين المعاني القائمة في الصدور جعله عبدُ القاهر رأسَ تعريف النظم، لأنّ النظم عنده مُؤسّسٌ على شقّين: الشق الأوّل هو توخى معانى النحو ، والشق الثانى هو المعانى القائمة فى الصدور

والدّرسُ البلاغيّ كلّه قائم على مدى الإصابة فى التوخِي الذي ليس له رسالةٌ إلا رسالةً واحدةً هي الإبانةُ عن المعاني القائمة في النّفوس، وهذ الوصف والتّحديد للنظم هو الذى صاغه البلاغيون بعد عبد القاهر في مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ لأنّ المطابقة هى التوخى، والحال هو الأمرُ الدّاعِي للمتكلم، يعني الباعث أوالغرض أوالمَامّ الذي أمّ المتكلمُ أن تنقله عبارته من صدره إلى صدور الآخرين، وهذا الربط تعلمناه

فى أول درس من دروس البلاغـة، لأنّ أوّل شَيْءٍ نتـعلمـه فى العلـم هو تعـريفُ العلم، وقد وضع علماؤنا هذه الحقيقة فى رأس التعريف حتى تظلّ البلاغة عند طلابها قائمة بين هذين الأصلين: اللفظ المنطوق، والمعنى المضمر فى الصدور.

قلت هذا وهو كلام معـروف لأهل العلم الذين دخلوا العلوم من أبوابها، وإنما ذكرته لأبْنِي عليـه شيئًا، هُو أنَّ حازمًـا القرطاجني قال كلامًا يُـوشك أنْ يكونَ ناقصا لهذه الحقـيقة التـى لا يجهـلها الْـمُبْتَدِؤُونَ، وذلـك قـوله: "فإنّي رأيـتُ النّـاس لـم يتكلموا إلاّ في بعض ظواهر ما اشتملتْ عليـه تلك الصّناعة، فتجاوزتُ أنا تلك الظواهر بعد التكلم عن جُمل مـقنعة مما تعلق بها إلى التكلم فى كثيـر من خفايا هذه الصنعة ودقائقها" (منهاج البلغاء: ص ١٨)

ومعنى هذا أن الكتابات إلى نهاية القرن السابع كانتْ في ظاهر هذه الصناعة، ولم تلج هذا الظاهر إلى الخـفىّ، ثُمّ إنّها لم تسـتوعب هذا الظاهر، وإنّمـا كانت في بعـضه، وأنّه ألمّ بجـملة من هذا الظاهر ثُم تجـاوزه إلى الخفـايا. ولعلّه أراد بالظّاهر الذي ألمّ به ما كتبه فى الطباق والمقابلة والتقـسيم والاستطراد والتسويم والتحجيل إلى آخر ما تراه فى كـتابه، وفي الكتب التى أفاد منها، وإذا كان حازم قـد جعل الدراسة البلاغية قسمين: ظـاهرًا اشترك فيه مع غيره، وخفيّـاً انفرد به، فـقد ذكر عبد القاهر أنّهـا خفـية كلهـا؛ لأنّ مادة الدرس البـلاغى والتي بُني منهـا، هي كمـا وصف فى الصفحـة السابعة من كتاب دلائل الإعـجاز، وهو فى خطواته الأولى على طريق بناء العلم، وهو يشير إلى موضوع العلم الذى جهله مـن يجهلـون هـذا العلـم وأنهـم لا يعلمون "أن ههنا دقائق وأسراراً، طريقُ العلم بها الرّوية والفكر، ولطائف مُسْتَقَاهَا العقلُ، وخـصائص معانٍ ينفـردُ بها قومٌ قد هُـدوا إليها، ودُلُّوا عليهـا، وكشف لهم عنها، ورفـعت الحجب بينهم وبينهـا، وأنّها السبب فى أن عـرضت المزية فى الكلام ووجب أن يفـضل بعضُـه بعضـاً، وأن يبعـد الشّـأوُ في ذلك، وتمتد الغـاية، ويعلو الْمرتقَى، ويعـزّ المطلب. حتى ينتـهى الأمر إلى الإعـجاز، وإلى أن يخـرج من طوق البشر" (دلائل الإعجاز: ص ٧).

وكتابـات عبد القاهر مـشحونة بالحديث عن أنّ المقـصُود من هذا العلم والذى

يبحث هو عنه قد خفى على كثيرٍ من الخاصة، وقد ذكرتُ فى هذه المقدمة حكاية الكندى، والكتاب الذى أكتبُ هذا مقدمة لطبعته الثانية ذكرتُ فيه كثيرا من هذا، فإذا جاء حازمٌ بعد كتابة هذا بقرنين من الزمن، وذكرَ النص الذى نقلناه كان ذلك أمرًا غريبًا، ويحتاجُ منا إلى بيان وجهه، لأنّنا لم نعهد حازمًا يتزيّد ولا ينكر فضل أهل العلم، ثم إنّه فقيهٌ مالكىّ، وربُىّ فِي بيت قاضى القضاة، وقد قام هذا القاضى الذى هو أبُوه على تربيته، وكلُّ ذلك يجعله أقرب إلى العدل والحكمة.

وأول ما يعيننا على بيان هذا النص هوأن نعود إليه ونقرؤه مرة ثانية، وقد ذكرت أنَّ الظاهر الذى شارك فيه من سبقوه هو كلامه فى الطباق والمقابلة والتقسيم والاستطراد والتسويم والتحجيل إلى آخره، وهذا من ظواهر هذا العلم كما قال، ولم يقف عبدُ القاهر عند هذه الأبواب؛ لأنّها لا تخفى كما تخفى الأبواب التى وقف عندها، وكان حازمٌ محتاطًا في نصّه احتياطًا هُو أشبه به فى حكمته وعدله، وذلك لأنّه قال: "فإنّى رأيتُ الناسَ لم يتكلموا . . . " إلى آخره، فأضاف كلمة "رأيتُ" وقيَّد حكمه بالذى رآه، ولو قال: لم يتكلم الناس إلا فى ظواهر هذه الصناعة، لكان متجاوزًا غير محتاط، وبذلك صار كلامه كلامًا صحيحا ودالاً دَلالة قاطعة على أنّه لم يرد ما تكلم به عبد القاهر فى هذه الصناعة، ولا ما تكلم به من جاؤُوا بعده مِمّن أخذُوا عنه، وليس فى كتابه إشارة إلى واحد منهم، وكلُّ الذين رآهم ممن تكلموا فى هذه الصناعة هو قدامة وابن سنان، وكلُّ النصوص المنقولة فى كتابه راجعة إلى هذين، حتى ما نقله عن الجاحظ منقول كلُّه من سر الفصاحة، وقدامة وابن سنان لم يتكلما إلاّ فِي بعض ظواهر هذه الصناعة كما قال، وكلام قدامة كان بين يديْ عبدِ القاهر، وقرأه، وهو داخلٌ في كلام العلماء الذي كان ينظرُ فيه عبدُ القاهر منْذُ خدم العلم، فيجد بعضه كالرمز والإيماء، والإشارة فى خفاءٍ، وبعضُه كالتنبيه علَى مكانِ الخَبِيءِ لِيطلب.

أمّا ابن سنان فإنّه مع علمه وفضله، قد شهد على نفسه شهادة مقلقة جدا، لما لَمْ يجد فرقًا بيْن كلام الله سبحانه وتعالى وكلام النّاس، ورأى أنّ القرآن الْكريمَ ليس معجزًا ببلاغته، وإنّما هومعجزٌ بالصّرفة، وأنّ الله سبحانه وتعالى صرفَ العرب

وعطّل قدرتهم على أن يأتوا بمثله، ولولا ذلك لجاؤوا بمثله، وقد كرّر هذا القول، قال مـرة:

"وإذا عُدْنا إلى التحقيق وجدْنا وجهَ إعجاز القرآن صرفَ العرب عن معارضته بأنْ سُلبوا العلوم التى بهـا كانوا يتمكّنون مـن المعارضـة فـى وقت مرامهـم ذلك" (سر الفصاحة: ص٩٤) .

وقال مرّة أخرى: "الصّحيحُ أنَّ وجـهَ الإعجاز فى القرآن هُو صرفُ العرب عن معارضتـه وأنّ فصاحته قدْ كانت في مـقدورهـم لولا الصرف، وهذا هُو المذهب الذي يعوّل عليه أهل هذه الصناعة، وأرباب هذا العلم" (سر الفصاحة: ص٢١٥).

وقولُه يُعـول عليه أهل هذه الصناعة، وأرباب هذا العلم، لا أعـرف له أصلا، ولا أعرف واحدا مشتـغلا بهذه الصناعة، وله فيها معـرفة وذوق يقول بالصَّرفة، وإذا رجعنا إلَى نصّ عـبد القـاهر الذي ذكر فيـه الدقائق والأسرار، وأنَّ طريـق العلم بها الرّوية والفكر، وجـدناه يقول: إنّ هذه الخفـايا هي السَّبب في أنَّ عـرضت المزيّة في الكلام، وأوجبت له أن يفضل بعـضُه بعضًا، وأن يبعدَ الشّـأوُ في ذلك، وتمتد الغاية حتّـى ينتهي الأمـر إلى الإعجـاز، وما دام ابن سنان قـد خفـيت عليه هذه الدقـائق والأسـرار التي بها يفـضل كـلامٌ كلامًـا، فليس بعـيدًا أن تكون كـتـاباتُه في بعض ظواهرهذه الصناعـة، وليس بعـيدًا أيضًـا على من كانـت بضاعـتُه من بضـاعة سـر الفصاحـة، وهو حازمٌ أن يرى ضرورة تجاوز هذا الظاهر إلى خفـايا هذه الصنعة التي افتقدها في أهم مصدر بلاغي كـان بين يديه. والله أعلم، ونسأل الله المغفرة لنا ولهم جميعا.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان وسلّم تسْلِيمًا كثيرًا

مكّة المُكرّمة: ٥ من ذى الحجة سنة ١٤٢٨هـ
الموافق ١٣ ديسمبر ٢٠٠٧م

دكتور
محمد محمد أبو موسى